الفصل الرابع
دينُ الفتوحات التحريرية

لقد مثل الإسـلام ـ كما جاء في شريعته الخاتمة ـ الشريعة المحمدية ـ؛ الامتداد لدين الله الواحد ـ من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.

وإذا كانت كل شرائع هذا الدين الإلهي الواحد، قد اشتركت في تحرير الإنسان من عبودية الطواغيت ـ كل الطواغيت ـ وذلك بالتوحيد الذي يستخلص الإنسان لعبادة الله الواحد الأحد، وفق الشريعة التي نزل بها الوحي على الأنبياء والمرسلين، فإن هذه الشريعة المحمدية الخاتمة والخالدة قد تميزت وامتازت عن الشرائع السابقة ـ بعد «تحرير الذات» بالتوحيد ـ امتازت بالسعي لتحرير «الآخرين» المستضعفين ـ كل المستضعفين من كل بني الإنسان.

فبعد تحرير الذات ـ بالتوحيد والقيم والشعائر والعبادات ـ دعا القرآن الكريم المؤمنين، الذين تحررت ذواتهم من عبادة الطواغيت، إلى الجهاد لتحرير المستضعفين الذين وقعوا فرائس لاستبداد المستبدين ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء: ٧٤ـ٧٦).

ولذلك، كان الجهاد في الإسلام ـ ليس جهاد دفع وجهاد طلب ـ كما اشتهر عند الفقهاء والمفسرين ـ وإنما هو في حقيقته جهاد لتحرير «الذات» من الطواغيت وجهاد لتحرير «الآخرين المستضعفين» من استبداد الطواغيت.

openiran.com

ولهذه الحقيقة، رأينا السياسة الخارجية للدولة الإسلامية الأولى ـ دولة النبوة ـ منذ نجاحها في تحييد الوثنية المشركة ـ بصلح الحديبية مع قريش سنة ٦ هـ سنة ٦٢٨م، وخلاصها من بؤر التآمر والتحريض والتمويل لحروب الشرك ضد الإسلام ودولته ـ بمعركة خيبر سنة ٧ هـ سنة ٦٣٨م؛ رأينا هذه السياسة الخارجية ـ التي بدأت سنة ٧ هـ سنة ٦٢٨ م ـ تتوجه إلى تحرير شعوب الشرق التي خضعت قرونًا عديدة لاستبداد الفرس والروم. ولقد تجسد هذا التوجه في رسائل رسول الله ﷺ إلى قوى الهيمنة وفي مقدمتها قيصرية الروم وكسروية الفرس وكذلك المقوس ـ عظيم القبط ـ في مصر.

فلتحرير المستضعفين ـ الذين رزحوا تحت النير الروماني لعشرة قرون ـ جاء في رسالة رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم ـ هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) التحذير من هذا القهر الواقع على الآريوسيين ـ النصارى الموحدين ـ: «سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. **فإن توليت فعليك إثم الأَرْيُسِيِّين**»(١).

ولتحرير المستضعفين، الواقعين تحت النير الكسروي الفارسي، جاء في رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى أبرويس (٥٩٠ ـ ٦٢٨م): «أسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك»(٢).

كما جاء في حوار ربعي بن عامر مع رستم ـ قائد الفرس في معركة القادسية سنة ١٥ هـ سنة ٦٣٦م ـ عندما سأله رستم:

ـ ما جاء بكم؟!

ـ فأجابه ربعي ـ معبرًا عن رسالة الإسلام في تحرير الناس ـ مطلق الناس ـ: «**إن الله قد ابتعثنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**»(٣).

وفي رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس ـ عظيم القبط ـ لَفْتةٌ إلى عدم الاعتراف بأن مصر شأن روماني، وذلك بمخاطبة عظيم القبط ـ حاكم ممفيس ـ بشأنها، دون الاكتفاء بمخاطبة قيصر الروم، وفي هذه الرسالة إلى المقوقس جاء: «أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط»(٤).

(١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص٥٠.
(٢) المصدر السابق. ص٧٦.
(٣) (تاريخ الطبري) جـ٣ ص٥١٩
(٤) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) ص٧٢.

obeikandl.com

كما جاء في حوار حامل هذه الرسالة ـ الصحابي حاطب بن أبي بلتعة ـ مع المقوقس ـ تحذيره من العواقب التاريخية للاستبداد بالرعايا، وذلك بقوله: «**إنه قد كان قبلك رجل ـ (يشير إلى فرعون موسى) ـ زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك**»(١).

ومع التحذير من الاستبداد، وعواقبه، فتح حاطب أمام المقوقس وقومه أوسع أبواب الحرية الدينية، التي جاء بها الإسلام ـ والتي حرموا منها لقرون عديدة ـ فقال للمقوقس: «**إن لك دينًا ـ (أي النصرانية) ـ لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به**»(٢).

هكذا أفصحت السياسة الخارجية لدولة النبوة ـ منذ إشراقاتها الأولى ـ عن رسالة الإسلام في تحرير الأمم والشعوب المغلوبة على أمرها، ثم جاءت غزوة تبوك سنة ٩ هـ ـ سنة ٦٣٠م ـ ضد الاستعمار الروماني للشام ـ وبعدها الفتوحات الإسلامية ـ في الخلافة الراشدة ـ لتضع هذه السياسة التحريرية في الممارسة والتطبيق، وذلك عندما فتح المسلمون في ثمانين عامًا ـ فتح تحرير ـ أوسع مما فتح الرومان ـ فتح قهر واستعمار ـ في ثمانية قرون!.

ولأن منهاج البحث ـ في هذا الكتاب ـ هو ضرب الأمثال على هذا التحرير، الذي مثلته هذه الفتوحات الإسلامية كان الوقوف بالحديث عند المعركة التي أدالت دولة الروم ـ فتح مصر ـ وعند المعركة التي أدالت دولة الفرس ـ القادسية ـ للتعبير عن الفتوحات الكبرى، التي حررت الشرق من الاستبداد، والتي فتحت أمام شعوبه أبواب الحرية على نحو غير مسبوق.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٤٦. (ومجموعة الوثائق السياسية) ص٧٢، ٧٣.
(٢) المصدر السابق. ص٧٢، ٧٣.

openkemal.com

الفتح الإسلامي لمصر

لقد كان الفتح الإسلامي لمصر ضرورة إستراتيجية للدولة الإسلامية؛ لأن مصر كانت قاعدة الدولة الرومانية في الشرق، وكان بقاء هذه القاعدة بيد الرومان تهديدًا للدولة الإسلامية، التي حررت الشام من القبضة الرومانية.

وعند المؤرخ الإنجليزي «بتلر» إشارة إلى هذا الفكر الاستراتيجي، الذي وقف خلف فتح مصر، والذي دفع إليه يتحدث عنه فيقول: «لقد قال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: «**إن «أرطبون» حاكم الروم على بيت المقدس ـ وكان قد هرب قبل تسليمها ـ قد لاذ بمصر ـ وإنه قد يجمع فيها جنود الدولة، وإن على العرب ألا يضيعوا الوقت، بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل أمره**»[١].

ففتح مصر، والقضاء على قاعدة الروم في الشرق، كان الشرط الضروري لبقاء دولة الإسلام، وحماية الفتوحات الإسلامية في الشام والمشرق.

ولأن معركة الفتح الإسلامي لمصر كانت الفاصلة في تحرير الشرق بأكمله؛ قال هرقل ـ قيصر الروم ـ: «**إذا سقطت الإسكندرية ضاع ملك الروم**» ولهذا حشد الرومان ـ بمصر ـ ١٢٠,٠٠٠ (مائة وعشرين ألف جندي)، في حصون وراءها حصون ـ كما يقول «ابن عبد الحكم» (٢١٤هـ ٨٢٩م) ولأن المدد الروماني لهذا الجيش الجرار ـ من البحر ـ مفتوحة أمامه كل الأبواب؛ لذلك كله كانت قيادة الفتح لواحد من خيرة الصحابة المقاتلين، ذوي العبقرية الإستراتيجية، وذوي الدهاء المشهود له به من الجميع، والذي تولى القيادة العسكرية منذ اللحظات الأولى لدخوله الإسلام، والذي قال عنه رسول الله ﷺ عندما رآه يمشي في كبرياء العظماء: «إنه قد خلق ليكون قائدًا»[٢]! كانت القيادة لعمرو بن العاص (٥٠ ق.هـ ـ ٤٣هـ ـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤م) فكان على رأس الجند الذين تنبأ رسول الله ﷺ بأنهم خير أجناد الأرض، المرابطون على ثغور الإسلام إلى يوم الدين.

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢٣٧.

(٢) ومع شجاعة عمرو وكبريائه وبطولاته فلقد روي عنه قوله: «إني إن كنت لأشد الناس حياء من رسول الله، ما ملأت عيني منه ولا راجعته بما أريد حتى لحق بالله حياء منه»! (فتوح مصر وأخبارها) ص١٨١.

obeikandl.com

ولقد شهد بهذه الحقائق كبار المؤرخين الأجانب ـ فضلًا عن كتب المناقب والتأريخ لأعلام الجيل الفريد الذين تربوا في مدرسة النبوة على يدي أستاذ أساتذة المربين. شهد بذلك المؤرخ الإنجليزي «بتلر» الذي قال: «كان النبي ﷺ يرى في عمرو رأيًا حسنًا، وقد قال فيه يومًا: «إنه من خير المسلمين وأكثرهم ثقة» وقال فيه أيضًا: «إنه من «صالحي قريش». وكان يحبه لحسن رأيه ولشجاعته. ولقد عقد له على بعض سراياه، وقال له عند ذلك: إنه قد أمَّره على الناس، ودعا له بالسلامة والغنيمة.

وكان عمرو على قيادة كتيبة من الكتائب في «يوم السلاسل»، فأرسل يستمد النبي ﷺ، فأرسل إليه مائتي رجل، فيهم أبو بكر وعمر، وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، فلما أقبلوا عليه قال عمرو: «أنا أميركم، وأنتم لي مدد»، فقال أبو عبيدة: «لا، بل أنا أمير على من معي، وأنت أمير على من معك»، فأبى عمرو هذا، فقال أبو عبيدة: «لقد قال لي رسول الله ﷺ: لا تختلفا. وإنك إن عصيتَ أطعتك»، فقال عمرو: «فإني آبى أن أطيعك»، فسلم عليه أبو عبيدة عند ذلك بالإمارة، ووقف وراءه في الصلاة» أي أنه كان القائد في الحرب لأمين هذه الأمة ـ أبو عبيدة بن الجراح ـ ولأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٨.

ولقد عقد له الرسول ﷺ بعد وقعة «السلاسل» على «عُمان»، فظل عليها حتى لحق النبي بربه، وبعد سنة أو سنتين من ذلك جعله أبو بكر أحد القواد الذين سيرهم إلى الشام.

ولقد افتتح قنسرين، وصالح أهل حلب، ومنبج، وأنطاكية وولاه عمر بن الخطاب فلسطين.

ولقد اجتمعت فيه صفات المحارب، والشاعر، وجواب الآفاق، والرجل الصالح، فكان واضح الباطن والظاهر، نبيل المقاصد والفعال، وكان محبَّبًا مؤلفًا، يملك قلوب الناس ويستهوي أفئدتهم، شأنه في ذلك شأن عظماء الرجال الذين يخلب حبهم أفئدة الناس فإذا إعجابهم ولاء وإخلاص[١].

هذا عن قائد الفتح..

أما جند الفتح ـ الذين قال عنهم المرجفون: إن أغلبهم كانوا من الصعاليك وقطّاع الطرق، والذين سبق أن ارتدوا عن الإسلام!ـ

فإن مصادر التاريخ ـ الأجنبية والعربية ـ تتحدث عنهم فتقول: «لقد كان حب القتال غريزة في العرب. وقد زادهم توقدًا إيمانهم بأن عليهم واجبًا دينيًّا يؤدونه، فاجتمعت لهم صفتان ما اجتمعتا في قوم إلا صار بأسهم شديدًا، فلما اجتمعتا للعرب أصبحوا لا يكاد يقف شيء في سبيلهم. لقد أصبح المسلمون جميعًا في جميع بلاد العرب وقبلتهم الكعبة، وإمامهم القرآن، قد ضمهم دين واحد وحكم واحد في عبادة إله واحد، سواء أكانوا قبل ذلك نصارى، أو يهودًا، من الفرس أو السودان أو العرب[١].

وهؤلاء الجند الفاتحون لمصر، الذين قادهم عمرو بن العاص، هم الذين سبق ووصفهم رسول الله ﷺ بأنهم خير أجناد الأرض، المرابطون على ثغور الإسلام فلقد روى عبد الله بن لَهِيعة (١٧٠ هـ ١٧٤هـ ٧١٥ ـ ٧٩٠م) من حديث عمرو بن العاص أنه قال: حدثني عمر أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم بعدي مصر، فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض».

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ولم يا رسول الله؟

قال: «لأنهم في رباط إلى يوم القيامة»[٢].

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل إعداد العدة والعتاد سلاحًا يلقي الرعب في قلوب الأعداء، فيكفوا عدوانهم ويتحقق الأمن دون قتال ـ وهو النصر بالرعب ـ فلقد كانت هيبة هذا الجند الفاتح لمصر في عيون الروم قتالًا حتى قبل وقوع القتال!.

«فعندما زار وفد من الروم معسكر المسلمين، قالوا: «**لقد رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة. ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم. إن الأسود والأبيض سواء عندهم، لا يفضل أحد أحدًا إلا بفضله وعقله، وليس بلونه**»[٣].

(١) المرجع السابق. ص١٨٥، ١٨٤.
(٢) المقريزي (الخطط) جـ١ ص٤٢.
(٣) (فتح العرب لمصر) ص٢٨٤.

obeikandl.com

ولقد أرسل المقوقس ـ حاكم منفيس ـ رسله إلى معسكر المسلمين، فلما عادوا إليه قال لهم:

ـ كيف رأيتموهم؟

ـ قالوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة. ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم.

ـ فقال المقوقس: والذي يُحْلَفُ به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم، وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم[١].

ولقد سُمع قبطي مرة وهو يقول: ما أعجب أمر هؤلاء العرب، فإنهم أتوا إلى مصر في قلة من الناس يريدون لقاء الروم في كتائبهم العظيمة!

فأجابه آخر من القبط: «**إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يُقتلوا عن آخرهم**»[٢].

وكان عبادة بن الصامت أسود اللون، فلما ركب ـ (وفد المسلمين) ـ السفن إلى المقوقس ـ (في الجزيرة) ـ، ودخلوا عليه، تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، فقال: نحوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني. فقالوا جميعًا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمّره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا بأن لا نخالف رأيه وقوله.

ـ قال ـ (المقوقس) ـ: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟

ـ قالوا: كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعًا، وأفضلنا سابقة، وعقلًا ورأيًا، **وليس يُنكر السواد فينا**.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٦٥.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٢٥٩، ٢٦٠.

obeikandl.com

قال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود، وكلمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لذلك هيبة.

فتقدم إليه عبادة، فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلَّفتُ من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواد مني، وأفظع منظرًا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي. وأنا قد ولّيت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي، وذلك أنا **إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله واتباع رضوانه**، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلبًا للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالًا، وما يبالي أحدنا كان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته لليله ونهاره، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذي بيده ويَبْلُغُه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، وإنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا نبينا، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟! لقد هِبْتُ منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، **إن هذا وأصحابه ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها**.

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها. وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا

obeikandl.com

أشهرا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به.

فقال عبادة بن الصامت: يا هذا، لا تغرنك نفسك ولا أصحابك، وأما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنّا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه. إن كان ما قلتم حقًّا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا أقدمنا عليه، إن قُتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (البقرة: ٢٤٩). وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرد إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلّفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وإنما همنا أمامنا. وأما قولك إننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه»[١].

كانت هذه هي حقيقة الجند الفاتح ـ كما أبصرها الروم والمقوقس، طلائع جديدة وفريدة، لعالم جديد وفريد.

وفي مصادر التاريخ ـ من ابن عبد الحكم في (فتوح مصر وأخبارها[٢] إلى الكندي في (فضائل مصر)[٣] إلى المقريزي في (الخطط)[٤] ـ ذكر لأسماء الصحابة الذين شاركوا في فتح مصر وهم أكثر من مائة منهم:

١ـ الزبير بن العوام (٢٨ ق.هـ ـ ٣٦ هـ ـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦م).

٢ـ وعبادة بن الصامت (٣٨ ق.هـ ـ ٣٤ هـ ـ ٥٨٦ ـ ٦٥٤م).

(١) المصدر السابق. ص٦٥ ـ ٦٨.

(٢) ص ٢٤٨ ـ ٣١٩.

(٣) ص ٣٧ ـ ٤٠.

(٤) جـ١ ص٥٥٤، ٥٥٥، وانظر ـ كذلك: الزركلي (الأعلام) ـ طبعة بيروت.

openkandil.com

٣ـ والمقداد بن الأسود (٣٧ ق.هـ ـ ٣٣هـ ـ ٥٨٧ ـ ٦٥٣م).
٤ـ أبو الدرداء عويمر بن عامر ـ وقيل عويمر بن زيد (٣٢هـ ٦٥٢م).
٥ـ فضالة بن عبيد (٥٣هـ ٦٧٣م).
٦ـ عقبة بن عامر (٥٨ هـ ٦٧٨م).
٧ـ أبو ذر الغفاري (٣٢هـ ٦٥٢م).
٨ـ محمية بن جزء الزبيدي (٢٥هـ ٦٤٥م).
٩ـ نبيه بن صؤاب.
١٠ـ رافع بن مالك.
١١ـ ربيع بن شرحبيل بن حسنة.
١٢ـ سعد بن وقاص (٢٣ ق.هـ ـ ٥٥ هـ ـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م).
١٣ـ عمرو بن علقمة.
١٤ـ عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق.هـ ـ ٦٥هـ ـ ٦١٦ ـ ٦٨٤م).
١٥ـ عبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠ ق.هـ ـ ٧٣ هـ ـ ٦١٣ ـ ٦٩٢م).
١٦ـ خارجة بن حذافة العدوي (٤٠ هـ ٦٦٠م).
١٧ـ عبد الله بن سعد بن أبي السرح (٣٧هـ ٦٥٧م).
١٨ـ أبو رافع ـ مولى رسول الله ﷺ.
١٩ـ محمد بن مسلمة الأنصاري (٣٥ ق.هـ ـ ٤٣هـ ـ ٥٨٩ ـ ٦٦٣م).
٢٠ـ مسلمة بن مخلد الأنصاري (١ ـ ٦٢هـ ـ ٦٦٢ ـ ٦٨٢م).
٢١ـ أبو أيوب الأنصاري (٥٢هـ ٦٧٢م).
٢٢ـ رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري (٥٦هـ ٦٧٦م).
٢٣ـ حبيب بن مغفل.
٢٤ـ كعب بن ضنة.
٢٥ـ معاوية بن حديج الكندي (٥٢هـ ٦٧٢م).
٢٦ـ عمار بن ياسر (٥٧ ق. ـ ٣٧هـ ـ ٥٦٧ ـ ٦٥٣م).
٢٧ـ عمرو بن العاص (٥٠ ق.هـ ـ ٤٣هـ ـ ٥٧٤ ـ ٦٦٤م).
٢٨ـ أبو هريرة (٢١ ق.هـ ـ ٥٩هـ ـ ٦٠٢ ـ ٦٧٩م).
٢٩ـ خارجة بن حذافة العدوي (٢٠ هـ ـ ٦٦٠).

obeikandi.com

٣٠ـ قيس بن أبي العاص السهمي (٢٣هـ ـ ٦٤٤).
٣١ـ نافع بن عبد القيس الفهري[١].
٣٢ـ أبو عبد الرحمن يزيد بن أنيس الفهري.
٣٣ـ ابن عبده.
٣٤ـ عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة.
٣٥ـ وردان ـ مولى عمرو بن العاص[٢].
٣٦ـ محمد بن مسلمة الأنصاري.
٣٧ـ أبو نصرة جميل بن نصرة الغفاري.
٣٨ـ أبو جندب بن جنادة الغفاري.
٣٩ـ عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي (٨٦هـ ٧٠٥م).
٤٠ـ كعب بن ضبة العبسي[٣].
٤١ـ عقبة بن عامر الجهني (٥٨هـ ٦٧٨م).
٤٢ـ أبو زمعة البلوي.
٤٣ـ برح بن حسكل[٤].
٤٤ـ جنادة بن أمية الأزدي (٨٠هـ ٦٩٩م).
٤٥ـ سفيان بن وهب الخولاني (٨٢هـ ٦٩٩).
٤٦ـ عامر ـ مولى جمل ـ الذي يقال له: عامر جمل (٧٠هـ ٦٩٠م).

تلك نماذج من كوكبة الصحابة ـ الذين تربوا في مدرسة النبوة ـ والذين شاركوا في «خير أجناد الأرض»، الذين أسهموا في إنجاز هذا الفتح المبين الذي أدال دولة الروم، التي قهرت الشرق لعشرة قرون!.

● ولقد أسهم في نجاح هذا الفتح ـ الذي كان أصعب الفتوح وأطولها مدة ـ وجود امتدادات عربية قديمة قد استوطنت أرض مصر منذ ما قبل ظهور الإسلام بزمن طويل.

فلقد كان للكنعانيين صلة قديمة بمصر، وبها تأثرت حضارتهم، ولقد هاجرت عشائر منهم إلى شرقي مصر من طريق سيناء. وفي شرقي مصر سكن العرب الأدوميون، الذين استأذنت بعض قبائلهم الفرعون «منفتاح» (١٢٣٥ ـ ١٢٢٤ ق.م) السكنى بمصر، فأذن لهم. والذين كونوا ـ بمصر ـ مملكة عربية امتدت من حدود فلسطين إلى خليج العقبة.

ولقد حل الأنباط محل الأدوميين، وأسسوا لهم دولة عربية، اكتشفت آثار لها في الصحراء الشرقية.

(١) أو هو عقبة بن نافع.
(٢) كان حامل لواء عمرو بن العاص
(٣) ويقال كعب بن يسار بن ضبة
(٤) ويقال برخ بن عسكر.

obeikandl.com

كما أثبتت الدراسات الآثارية الصلات بين المصريين القدماء وبين الساميين والأصول السامية للغة المصرية القديمة والصلات الثقافية والحضارية بين المصريين القدماء والساميين.

ويذكر المؤرخان اليونانيان «استرابو» (٦٦ ق.م ـ ٢٤ ق.م) و«بلينيوس» (حوالي ٧٠م) أن العرب قد تكاثروا ـ في أيامهما ـ على العدوة الغربية من البحر الأحمر، حتى شغلوا ما بينه وبين النيل في أعلى الصعيد، وأصبح نصف سكان «فقط»، من العرب، وكانت لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر والنيل، كما شهد التاريخ القديم هجرات من عرب خزاعة ـ وهم فرع من الأزد ـ إلى مصر، والسكن فيها، وفي الفترة التي سبقت فتح مصر ـ وبعد فتح الشام ـ هاجرت هجرات من عرب غسان وجذام وعامة ـ كانوا قد تنصروا ـ إلى مصر، وسكنوا أرض الجفار ـ في شمالي سيناء ـ وأقطعهم الحاكم الروماني ولاية «تنيس» (صان الحجر) كما سكن دمياط قبيل الفتح عرب كانوا قد تنصروا[1].

ولقد أسهم هذا الوجود العربي بمصر في وقائع الفتح الإسلامي، وكان منهم المدد الذي التحق بجيش عمرو بن العاص.

● أما مسيرة هذا الفتح فيتحدث عنها ابن عبد الحكم ـ أقدم من أرخ لهذا الفتح ـ فيقول: «إن عمر بن الخطاب قد عقد لعمرو بن العاص «على أربعة آلاف رجل ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة ـ (معلقًا المضي في الفتح على مشاورة من بالمدينة المنورة) ـ.

وكتب عمر إلى عمرو أن ينصرف عن المضي في الفتح إذا جاءه كتابه ـ (بعد مشاورة من بالمدينة) ـ قبل الدخول إلى مصر «فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح، فتخوّف إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف، فلم يأخذه من الرسول وسار حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، وقال لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله.

وعند العريش حل عيد الأضحى سنة ١٨ هـ فصلى الجيش الفاتح أول صلاة لعيد الأضحى على أرض مصر، وضحى عمرو عن أصحابه بكبش.

(١) د. عبد المجيد عابدين (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده) ص٧، ٨، ٩. طبعة مطبعة الشبكي ـ القاهرة سنة ١٩٦٤م، ومقدمة (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) للمقريزي ص٧٧، ٧٨، ٩٠، ٩١. طبعة عالم الكتب. القاهرة سنة ١٩٦١م. و(فتح العرب لمصر) ص١٨٦.

obeikandl.com

وفي «الفرما» كان أول قتال بين الجيش الفاتح وبين الروم وكان قتالًا شديدًا استمر نحو شهر ثم فتح الله على المسلمين.

ومنذ اللحظات الأولى لدخول الجيش الفاتح أرض مصر، تلقاه القبط بالترحاب والمعاونة ذلك أن أسقف القبط ـ الهارب من بطش الرومان ـ «بنيامين» كتب إلى أتباعه يعلمهم أنه لن تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو بن العاص، فكان القبط في الفرما أعوانًا للجيش الإسلامي الفاتح.

ويجمع كبار المؤرخين على هذا الذي ذكره ابن عبد الحكم فيقول المقريزي: إنه لما قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين معه إلى مصر، قاتلهم الروم حماية لملكهم ودفعًا لهم عن بلادهم، فقاتلهم المسلمون. وطلب القبط من عمرو المصالحة على الجزية، فصالحهم عليها، وأقرهم على ما بأيديهم من الأراضي وغيرها، وصاروا معه عونًا للمسلمين على الروم حتى هزمهم الله تعالى، وأخرجهم من أرض مصر[١].

ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ الإنجليزي «بتلر» فيقول: «إن علينا أن نبين هنا بيانًا لا شك فيه، أنه لم يكن في ذلك الوقت شيء اسمه القبط في ميدان النضال، ولم تكن منهم طائفة لها يد فيه، بل كان القبط إذ ذاك بمنجاة عنه، قد أذلهم الروم وأرغموا أنوفهم[٢].

ومع هذا الرأي يقف المؤرخون الفرنسيون: فيليب فارج، ويوسف كرباج، فيقولون: «إن جميع كتاب الحوليات متفقون على أن الأقباط قد استقبلوا ببالغ التسامح الفاتحين العرب، الذين حرروهم من الاضطهاد وإنه يجري قبول دخول العرب مصر بشكل مصحوب بالأمل، إن لم يجر الاحتفاء بحماس، وهو ما ستظل تحتفظ به الذاكرة اليعقوبية ذكرى قدوم أبناء إسماعيل من الجنوب لتخليصنا»[٣].

وبعد معركة الفرما، سار عمرو بن العاص، لا يلقى إلا مدافعات خفيفة فنزل «القواصر» وعند «بلبيس» كان القتال الشديد بينه وبين الروم، الذي استمر نحو شهر.

وبعد الانتصار في «بلبيس» سار الجيش الفاتح لا يواجه إلا المقاومة الخفيفة حتى أتى إلى «أم دنين» ـ (حصن بابليون)ـ فقاتله

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٦، ٥٨.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٢٨١.
(٣) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي والتركي) ص٣٣، ٣٨.

obeikandl.com

الروم قتالًا شديدًا، فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطلب المدد فأمده بأربعة آلاف جندي ـ على كل ألف منهم رجل من الصحابة بألف رجل وقال له: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجلٌ مقام ألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد». ثم قال: اعلم أن معك اثني عشر ألفًا، ولا يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة».

ولما أبطأ فتح حصن بابليون، وطال حصاره، قال الزبير بن العوام: إني أهب نفسي لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا. فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر، معه السيف، فتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن ينكسر السلم. فلما اقتحم الزبير، وتبعه من تبعه، وكبّر وكبّر من معه، وأجابهم المسلمون من خارج، لم يشكّ أهل الحصن، أن العرب قد اقتحموه جميعًا، فهربوا، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن بعد حصار استمر سبعة أشهر[1].

وعبر دلتا النيل، سار الجيش الفاتح مقاتلًا الحاميات الرومانية، وفاتحًا مدن الدلتا وحصونها[2]، حتى بلغ الإسكندرية العاصمة الشرقية لملك الروم فتحصن بها الروم، وكانت عليهم حصون لا تُرام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين «حلوة» إلى «قصر فارس» إلى ما وراء ذلك، ومعم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة.

وكان ملك الروم يقول: لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، إن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية ـ حيث غلب العرب على الشام ـ فقال الملك: **لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها.**

وكان عمر بن الخطاب ـ بالمدينة ـ يترقب أنباء فتح الإسكندرية، ولما أبطأ الفتح وبلغ أمد الحصار أربعة عشر شهرًا كتب إلى عمرو

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٣.

(٢) ومن هذه المعارك معركة «ترفوط» ـ على النيل ـ ومعركة «كوم شريك» ـ قرب الإسكندرية ـ والتي دام القتال فيها ثلاثة أيام ومعركة «سُلْطَيْس» وكان القتال فيها شديدًا ومعركة «الكريون» ـ ولقد دام القتال بها بضعة عشر يومًا ـ ومعركة «سخا» «بلهيت» و«قرطا» و«الخيس» (المصدر السابق. ص٧٣).

obeikandl.com

بن العاص رسالة القائد الذي يعيش في «غرفة عمليات» المعركة والذي يرسم خطة الفتح لعاصمة ملك الروم وفيها قال: «أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، **إنكم تقاتلون منذ سنتين،** وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم. وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل، على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزّل الرحمة ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم».

فلما أتى عمرًا الكتاب، جمع الناس وقرأه عليهم، ثم دعا أولئك النفر ـ الأربعة ـ فقدمهم أمام الناس، **وأمر الناس، أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل، ويسألوه النصر. ففعلوا، ففتح الله عليهم.**

ولقد عهد عمرو بن العاص بقيادة معركة فتح الإسكندرية إلى عبادة بن الصامت ـ الذي سبق وقاد فتح حصن بابليون ـ وجعل عمرو من عمامته راية رفعها عبادة وهو يقود القتال ضد الروم! فكان «الفتح» للإسكندرية في يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين[1] بعد حصار، دام أربعة عشر شهرًا منها خمسة أشهر في حياة هرقل وتسعة بعد وفاته.

وبعد الانتصار العظيم ـ الذي أدال دولة الروم في الشرق ـ بعث عمرو بن العاص «معاوية بن حديج» إلى عمر بن الخطاب ـ بالمدينة ـ يبشره بالفتح. ويحكي معاوية نبأ هذه الرحلة فيقول: لقد قدمت المدينة في الظهيرة، فأنخت راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد، فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب، فرأتني شاحبًا عليّ ثياب السفر، فأتتني فقالت:

ـ من أنت؟

(١) هكذا في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٠. وفي (التوفيقات الإلهامية) أن ذلك كان يوم الجمعة أول جمادى الثانية سنة ٢٠ هـ.

obeikandl.com

ـ فقلت: أنا معاوية بن حديج، رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتد، أسمع حفيف إزارها على ساقيها، حتى دنت مني فقالت: قم، فأجب أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها، فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال:

ـ ما عندك؟

ـ فقلت: خيرٌ يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.

فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن: **أذِّن في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، ثم قال لي: قم فأخبر أصحابك، فقمت فأخبرتهم، ثم صلى، ودخل منزله، واستقبل القبلة، ودعا بدعوات، ثم جلس، فقال: يا جارية: هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال: كل، فأكلت على حياء، ثم قال: كل، فإن المسافر يحب الطعام، فلو كنت آكلًا لأكلت معك، فأصبت على حياء. ثم قال: يا جارية، هل من تمر؟ فأتت بتمر في طبق، فقال: كل، فأكلت على حياء. ثم قال:**

ـ ماذا قلت، يا معاوية، حين أتيت المسجد؟

ـ قال: قلت: أمير المؤمنين قائل.

ـ قال: بئس ما قلت ـ أو بئس ما ظننت ـ لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟!»[1].

ولقد كان فتح مصر ـ مصر الشعب ـ الذي مثله المقوقس ـ حاكم منفيس ـ صلحًا، بينما كان فتح مصر ـ الدولة الرومانية ـ عنوة وقتالًا شرسًا وطويلًا.

وعندما اختلف الجند الفاتحون على قائدهم عمرو بن العاص يريدون قسم غنائم الفتح، كما تقسم غنائم البلاد المفتوحة عنوة. قال عمرو بن العاص: لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه فأجابه عمر: لا تقسمها، وذرهم يكون خراجها فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم. فأقرها عمرو، وأحصى أهلها، وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحًا كلها[2].

هكذا ـ وعلى هذا النحو ـ سارت الأحداث الكبرى لهذا الفتح الإسلامي المبين.

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٨١.
(٢) المصدر السابق. ص٨٢، ٨٣.

obeikandl.com